الباب الثاني عشر

باب إيلاَذَ وبَلاَذَ وإيرَاخْتَ

قالَ دبْشَليمَ الملِكُ لبَيْدَبَا الفيْلَسُوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ، فاضْرِبْ لي مثَلاً في الأشْياءِ التي يجبُ على الملِكِ أنْ يُلْزِمَ بها نفسَهُ ويَحْفَظَ مُلْكَهُ ويُثبِّتَ بها سُلْطانَه ويكونُ ذلكَ رأسَ أمرِه ومِلاَكَهُ بالْحِلْم أمْ بالمُروءَةِ أمْ بالشَّجاعةِ أمْ بالجُودِ. قال بيْدَبا: إنَّ أحَقَّ ما يَحْفَظُ به الملِكُ مُلْكهُ الحِلمُ وبه تَثْبُتُ السَّلْطَنةُ، والحِلمُ رأسُ الأمورِ ومِلاَكُها وأجْوَد ما كانَ في المُلوكِ.

كالذِي زعَمُوا أنهُ كانَ ملِكٌ يُدْعَى بَلاَذَ وكانَ لهُ وزِيرٌ يُدْعَى إيلاَذَ وكانَ مُتعبِّداً ناسكاً، فنامَ الملِكُ ذاتَ ليْلةٍ فرَأى في مَنامهِ ثمانيةَ أحْلامٍ أفْزَعتْهُ فاستَيْقَظَ مَرْعوباً، فدَعا بالبَراهِمَةِ وهمُ النُّسَّاكُ ليُعبِّرُوا رُؤْياهُ، فلمَّا حضَرُوا بينَ يديْه قَصَّ عليْهِمْ ما رَأى فقالوا بأجْمعِهِمْ: لقدْ رَأى الملِكُ عَجَباً، فإنْ أمهَلَنا سَبْعةَ أيَّامٍ جئْنا بِتأويلهِ. قال الملكُ: قدْ أمهلْتُكُمْ فخرَجوا منْ عندِه ثمَّ اجتَمَعُوا في مَنزِلِ أحدِهِمْ وائْتَمَرُوا بينهمْ، وقالوا: قدْ وَجدْتُمْ عِلْماً واسِعاً تُدْرِكُونَ بهِ ثَأرَكُمْ وتَنْتَقِمُونَ منْ عدُوِّكُم وقدْ عَلِمتُمْ أنهُ قَتَلَ منَّا بالأمْسِ اثْنَي عشرَ ألفاً.

وها هوَ قدْ أطْلَعَنا على سِرِّهِ وسألَنا تَفْسيرَ رُؤْياهُ، فهَلُمَّ نُغْلِظْ لهُ القوْلَ ونَخوِّفْهُ حتى يَحْمِلَهُ الفَرَقُ والجَزَعُ على أنْ يفْعَلَ الذي نريدُ، ونأمُرُهُ فنقُولُ ادْفَعْ إلَيْنا أحِبّاءَكَ ومنْ يَكْرُمُ عليْكَ حتى نَقْتُلَهمْ، فإنا قدْ نَظَرْنا في كتُبِنا فلمْ نَرَ أنْ يُدْفعَ عنْكَ ما رأيتَ لنفْسِكَ وما وَقَعْتَ فيهِ منْ هذا الشرِّ إلاَّ بقتلِ منْ

(١) مِلاك الأمر بفتح الميم وكسرها: ما يقوم به هذا الأمر.

نُسَمِّي لكَ، فإنْ قال الملِكُ: ومَنْ تُرِيدُونَ أنْ تَقْتُلوا سَمُّوهمْ لي، قُلْنا: نرِيدُ الملِكةَ إِبرَاخْتَ أمَّ جُوبَرَ المَحْمودَةَ أكرَمَ نِسائكَ عليْكَ، ونُرِيدُ جُوبَرَ أحْبَّ بَنيكَ إِليكَ وأفْضَلهمْ عندَكَ، ونُرِيدُ ابنَ أخيكَ الكريمَ وإِيلاذَ خَليلَكَ وصاحبَ أمْرِكَ، ونُرِيدُ كَالَ الكاتِبَ صاحِبَ سِرِّك، وسيْفَكَ الذي لا يُوجَدُ مثْلُهُ والفيلَ الأبْيَضَ الذي لا تَلْحَقُهُ الخيْلُ، والفَرَسَ الذي هوَ مَرْكَبُكَ في القِتالِ، نُرِيدُ الفِيلَيْنِ العظِميْنِ اللَّذَيْنِ يكونانِ معَ الفيلِ الذَّكر ونُرِيدُ البُخْتِيَّ[1] السَّريعَ القويَّ.

«ونُرِيدُ كَبَارِيُونَ الحكيمَ الفاضلَ العالِمَ بالأمورِ لِنَنتقمَ منهُ بما فعَلَ بنا، ثمَّ نقولُ لهُ: إِنَّما ينبغي لكَ أيها الملكُ! أنْ تَقْتُلَ هؤُلاَءِ الذينَ سَمَّيْناهمْ لكَ ثمَّ تَجْعَلَ دِماءَهمْ في حَوْضٍ تملؤُهُ ثمَّ تَقْعُدُ فيهِ فإذا خَرَجْتَ منَ الحَوْضِ اجتَمَعْنا نحنُ مَعاشِرَ البَراهِمةِ منَ الآفاقِ الأرْبعةِ نَجُولُ حوْلَكَ فنَرْقِيكَ[2] ونَتْفِلُ عليكَ ونَمْسَحُ عنكَ الدَّم ونَغْسلُكَ بالماءِ والدُّهْنِ الطيِّبِ، ثمَّ تقُومُ إِلى مَنزِلِكَ البَهِيِّ فيَدْفَعُ الله بذلكَ البَلاءَ الذي نَتَخوَّفُه عليكَ فإنْ صَبَرْتَ أيها الملكُ! وطابَتْ نفْسُكَ عنْ أحِبَّائِكَ الذينَ ذَكَرْنَا لكَ وجعَلْتَهمْ فِدَاكَ تخلَّصْتَ منَ البَلاءِ واستَقامَ لكَ مُلكُكَ وسُلطانُكَ واستَخلَفْتَ منْ بعْدِهمْ مَنْ أحْبَبْتَ، وإِنْ أنتَ لمْ تَفْعَلْ تخَوَّفْنا عليْكَ أنْ يُغْصَبَ مُلكُكَ أو تِهْلِكَ فإِنْ هوَ أطاعَنا فيما نأمُرُه قتَلْناهُ أيَّ قِتْلةٍ شِئْنا».

فلمَّا أجمَعُوا أمرَهمْ على ما ائْتَمَرُوا بهِ رجَعُوا إِليهِ في اليوْمِ السَّابعِ وقالوا لهُ أيها الملكُ: إِنّا نَظرْنا في كتُبِنا تفْسيرَ ما رأيْتَ وفَحَصْنا عنِ الرَّأيِ فيما بيْننا، فليكُنْ لك أيها الملِكُ الطّاهرُ الصَّالحُ الكَرامةُ، ولَسْنا نَقْدِرُ أنْ نُعْلِمَكَ بما رأيْنا إِلاَّ أنْ تَخْلُوَ بنا، فأخرَجَ الملكُ مَنْ كانَ عندَهُ وخَلاَ بهمْ

(١) البخت: الإبل.
(٢) رقيته عوذته بالله.

فَحدَّثُوهُ بالذي ائتَمَرُوا بهِ فقالَ لهمُ: الموْتُ خيرٌ لي منَ الحَياةِ إنْ أنا قتَلْتُ هؤُلاءِ الذينَ همْ عَدِيلُ(١) نفْسِي، وأنا ميِّتٌ لا مَحالةَ والحياةُ قَصيرةٌ ولسْتُ كلَّ الدَّهْرِ مَلِكاً، وإنّ الموْتَ عندِي وفِراقَ الأحْبابِ سَواءٌ. قال لهُ البرْهَمِيُّونَ: إنْ أنتَ لمْ تَغْضَبْ أخبرْناكَ فأذِنَ لهمْ فقالوا: أيها الملكُ! إنكَ لمْ تقُلْ صَواباً حينَ تَجْعَلُ نفْسَ غيرِكَ أعزَّ عندَكَ منْ نفْسِكَ، فاحتَفِظْ بنفْسكَ ومُلكِكَ واعمَلْ هذا الذي فيهِ لكَ الرَّجاءُ العظيمُ على ثِقةٍ ويَقينٍ.

وقَرَّ عَيْناً بمُلْككَ في وُجُوهِ أهْلِ مملَكَتِكَ الذينَ شَرُفْتَ وكَرُمتَ بهمْ ولا تَدَعِ الأمرَ العظيمَ وتأخُذْ بالضَّعيفِ فتُهلِكَ نفْسَكَ إيثَاراً لمنْ تُحِبُّ. واعلمْ أيها الملكُ! أن الإنْسانَ إنَّما يُحِبُّ الحَياةَ محبَّةً لنفْسهِ وأنهُ لا يُحِبُّ مَنْ أحَبَّ منَ الأحْبابِ إلاَّ ليَتمتَّعَ بهمْ في حَياتهِ، وإنما قِوَامُ نفْسِكَ بعدَ الله تعالى بمُلْككَ، وإنكَ لمْ تَنَلْ مُلْككَ إلاّ بالمشَقَّةِ والعَناءِ الكثيرِ في الشهُورِ والسِّنينِ، وليسَ ينبغي أنْ تَرْفُضَهُ ويَهونَ عليكَ، فاستَمِعْ كلامَنا وانظُرْ لنفسِكَ مُناهَا ودَعْ ما سِواها فإنهُ لا خَطَرَ لهُ، فلمَّا رأى الملكُ أنَّ البرْهَمِيِّينَ قدْ أغلَظُوا لهُ في القوْلِ واستَجْرَأوا عليهِ في الكلامِ اشْتدَّ غمُّهُ وحُزْنُه وقامَ منْ بينِ ظَهْرَانَيْهمْ ودَخَلَ إلى حُجْرَتهِ فَخرَّ على وجْههِ يَبكي ويَتقلَّبُ كما تَتَقَلَّبُ السَّمكةُ إذا خَرَجَتْ منَ الماءِ.

وجعَلَ يقولُ في نفسهِ: ما أدْرِي أيُّ الأمرَيْنِ أعظَمُ في نفْسي الهلَكَةُ أمْ قتْلُ أحِبَّائي، ولنْ أنالَ الفَرَحَ ما عِشْتُ وليسَ مُلْكي بِباقٍ عليَّ إلى الأبدِ ولسْتُ بالمُصِيبِ سُؤْلي في مُلْكي وإني لزَاهِدٌ في الحَياةِ إذا لمْ أرَ إبرَاخْتَ، وكيْفَ أقدِرُ على القيامِ بمُلْكي إذا هَلَكَ فِيلي الأبيضُ وفرَسي الجوادُ، وكيْفَ أُدْعَى مَلِكاً وقدْ قتَلْتُ منْ أشارَ البرَاهِمَةُ بقتْلهِ وما أصنَعُ بالدُّنْيا بعْدَهم.

ثمَّ إنّ الحديثَ فَشَا في الأرْضِ بحُزْنِ الملِكِ وهَمِّه، فلمَّا رَأى إيلاذُ

(١) عديل: نظير.

ما نالَ الملكَ منَ الهمِّ والحُزْنِ فكَّرَ في حِكْمتِهِ ونظَرَ وقالَ: ما ينبغي لي أَنْ أستَقْبِلَ الملكَ فأسألَهُ عنْ هذا الأمرِ الذِي قدْ نالَهُ منْ غيرِ أنْ يَدْعُوَنِي، ثمَّ انْطلَقَ إلى إيراخْتَ فقالَ: إني مُنْذُ خَدَمْتُ الملكَ إلى الانَ لمْ يَعْمَلْ عمَلاً إلاّ بمشُورَتي ورَأيي، وأرَاهُ يكْتُمُ عنِّي أمراً لا أعلمُ ما هوَ ولا أراهُ يُظْهِرُ منهُ شيئاً، وإني رأيتُهُ خالِياً معَ جماعةِ البرْهَميِّينَ مُنذُ لَيالٍ، وقدِ احتَجَبَ عنَّا فيها، وأنا خائِفٌ أن يكونَ قدْ أطلَعَهمْ على شيءٍ منْ أسرارِهِ فلسْتُ آمَنُهمْ أنْ يُشيرُواعليهِ بما يَضُرُّهُ ويَدْخُلُ عليهِ منهُ السُّوءُ، فقُومي وادْخُلي عليهِ فاسألِيهِ عنْ أمرِهِ وشأنِه وأخبرِيني بما هوَ عليهِ وأعلِمِيني فإني لسْتُ أقدِرُ على الدُّخولِ عليهِ فلعلَّ البرْهَمِيِّينَ قدْ زيَّنُوا لهُ أمراً وحَمَلُوهُ على خُطَّةٍ قَبيحةً.

وقدْ عَلِمْتُ أنَّ منْ خُلُق الملِكِ أنهُ إذا غَضِبَ لا يَسألُ أحداً وسوَاءٌ عندَهُ صَغيرُ الأمورِ وكبيرُها. فقالتْ إيرَاختُ: إنهُ كانَ بَيني وبينَ الملِكِ بعْضُ العِتابِ فلسْتُ بدَاخلةٍ عليهِ في هذهِ الحالِ. فقالَ لها إيلاذُ: لا تَحْمِلي عليهِ الحِقْدَ في مثلِ هذا ولا يَخطُرَنَّ ذلكَ على بالكَ فليسَ يَقدِرُ على الدُّخولِ عليهِ أحدٌ سِوَاكِ، وقد سَمِعتُهُ كثيراً يقولُ ما اشتَدَّ غَمِّي ودَخَلَتْ عليَّ إيرَاخْتُ إلاّ سُرِّيَ(١) ذلِكَ عنِّي، فقُومي إليهِ واصفَحِي عنهُ وكلِّمِيهِ بما تَعْلَمينَ أنهُ تَطِيب بهِ نفْسهُ ويَذْهَبُ الذِي يَجِدُهُ وأعْلِمِيني بما يكُونُ جوابُهُ فإنَّ بذلكْ لنا ولأهلِ المملكةِ أعظَمَ الرَّاحةِ.

فانْطلَقتْ إيرَاخْتُ فدَخلَتْ على المِلكِ فَجلَسَتْ عندَ رأسهِ فقالتْ: ما الذي بكَ أيها الملِكُ المحمودُ؟ وما الذِي سَمِعْتَ منَ البَراهِمَةِ؟ فإني أراكَ مَحْزُوناً فأعْلِمْني ما بكَ فقدْ ينبغي لنا أنْ نَحْزَنَ معكَ ونُؤاسيَكَ بأنْفُسِنا. فقالَ الملكُ: أيَّتُها المرْأةُ لا تَسأَلِيني عنْ أمرِي فتَزِيدِيني غمًّا وحُزْناً فإنهُ أمرٌ لا ينبغي أنْ تَسأليني عنهُ، قالتْ: أوَ قدْ نزَلْتُ عندَكَ مَنزِلةَ منْ يَسْتَحِقُّ هذا،

(١) سُرِّيَ عني: انكشف.

إنما أحْمَدُ النَّاسِ عقْلاً مَنْ إذا نَزَلَتْ بهِ النَّازِلاتُ كانَ لنفْسهِ أشدَّ ضَبْطاً وأكثرَهُمْ ٱسْتماعاً منْ أهلِ النُّصْحِ حتى يَنْجُوَ منْ تلكَ النازِلةِ بالحِيلةِ والعقْلِ والبَحْثِ والمُشاوَرَةِ، فعَظيمُ الذَّنْبِ لا يَقْنَطُ منَ الرَّحمةِ، ولا تُدْخِلَنَّ عليكَ شيئاً منَ الهَمِّ والحُزْنِ فانهما لا يَرُدَّانِ شيئاً مَقْضِياً إلاَّ أنهُما يُنْحِلانِ الجسْمِ ويَشْفِيانِ العدُوَّ. قال لها الملكُ: لا تَسألِيني عنْ شيءٍ فقدْ شَقَقْتِ عليَّ والذي تَسألِيني عنهُ لا خَيرَ فيهِ لأنَّ عاقِبتُهُ هَلاكِي وهَلاَكُكِ وهَلاكُ كثيرٍ منْ أهْلِ مَمْلكَتي ومنْ هوَ عَدِيلُ نفْسِي، وذكَر أنَّ البرَاهِمَةِ زعَمُوا أنهُ لا بدَّ منْ قتْلِكِ وقتْلِ كثيرٍ منْ أهلِ مَودَّتي ولا خَيرَ في العَيْشِ بعْدَكُمْ وهلْ أحدٌ يَسمَعُ بهذا إلاَّ اعترَاهُ الحُزْنُ؟.

فلمَّا سَمِعَتْ ذلكَ إيرَاخْتُ جَزِعَتْ ومنَعَها عقْلُها أنْ تُظْهِرَ للملِكِ جَزَعاً فقالتْ: أيها الملكُ! لا تَجْزَعْ فنحْنُ لكَ الفِدَاءُ ولكَ في سِوَايَ ومِثْلي منَ الجَوَارِي ما تَقَرُّ بهِ عينُكَ، ولَكني أطلُبُ منكَ أيُّها الملِكُ حاجةً يَحْمِلُني على طلَبِها حُبِّي لكَ وإيثارِي إيَّاكَ وهيَ نَصيحتي لكَ. قال الملِكُ: وما هيَ؟ قالتْ: أطلُبُ منْكَ ألاَّ تَثِقَ بعْدَها بأحدٍ منَ البَراهمةِ ولا تُشاوِرَهمْ في أمْرٍ حتى تَتَثبَّتَ في أمرِكَ ثمَّ تُشاوِرَ فيهِ ثِقاتِكَ مِراراً فإنَّ القتْلَ أمْرٌ عظيمٌ ولسْتَ تَقْدِرُ على أنْ تُحْييَ منْ قَتَلْتَ، وقد قيلَ في الحدِيثِ: إذا لَقِيت جَوْهراً لا خَيرَ فيهِ فلا تُلْقِه منْ يدِكَ حتى تُرِيَهُ منْ يَعْرِفُه، وأنتَ أيها الملكُ! لا تَعْرِفُ أعدَاءَكَ، واعلَمْ أنّ البَراهمةَ لا يُحِبُّونَكَ، وقدْ قَتَلْتَ منهمْ بالأمْسِ ٱثنَي عشَرَ ألْفاً، ولا تَظُنَّ أن هؤُلاءِ ليْسُوا منْ أولئكَ.

«ولَعَمْرِي ما كنْتَ جَدِيراً أنْ تُخْبِرَهُمْ برُؤْياكَ ولا أنْ تُطْلِعَهمْ عليْها، وإنما قالوا لكَ ما قالُوا لأجْلِ الحِقْدِ الذي بينَكَ وبينهمْ لعلَّهمْ يُهْلِكُونَكَ ويُهْلِكُونَ أحِبَّاءَكَ ووَزيرَكَ فيَبْلُغونَ قصْدَهمْ منكَ، وأظُنُّكَ لوْ قَبِلْتَ منهمْ فقَتَلْتَ مَنْ أشارُوا بقتْلهِ ظَفِرُوا بكَ وغَلَبُوكَ على مُلكَكَ فيَعُودُ المُلْكُ إليهمْ كما كانَ،

فانْطَلِقْ إلى كَبارِيُونَ الحكيمَ فهوَ عالِمٌ فَطِنٌ فأخبِرْهُ عمَّا رأيْتَ في رُؤْياكَ، واسألْهُ عنْ وَجْهِها وتأويلِها . . . فلمَّا سَمِعَ الملِكُ ذلكَ سُرِّيَ عنهُ ما كانَ يجِدُهُ منَ الغمِّ، فأمَرَ بفرَسِهِ فأُسْرِجَ فرَكِبَهُ ثمَّ انطلَقَ إلى كَبارِيونَ الحكيم. فلمَّا انتهَى إليهِ نزَلَ عنْ فرَسِهِ وسجَدَ لهُ وقامَ مُطأطِىءَ الرَّأسِ بينَ يدَيْهِ فقالَ لهُ الحكيمُ: ما بالُكَ؟ أيها الملِكُ! ومالي أراكَ مُتغيِّر اللَّوْنِ. فقالَ لهُ الملكُ: إني رأيْتُ في المَنامِ ثمانيةَ أحْلاَمٍ قَصَصْتُها على البراهمةِ وأنا خائفٌ أن يُصِيبَني منْ ذلكَ عظيمُ أمْرٍ ممَّا سَمِعْتُ منْ تَعْبيرِهِمْ لرُؤْيايَ وأخشَى أنْ يُغْصَبَ منِّي مُلكي أو أنْ أُغلَبَ عليهِ.

فقال لهُ الحكيمُ: إنْ شئْتَ قَصَصْتَ عليَّ أحْلاَمكَ وإنْ شئْتَ قصصْتُها عليْكَ وأخبرْتُكَ بما رأيْتَ جميعَهُ. قال الملكُ: بلْ منْ فِيكَ أحْسَنُ. قال الحكيمُ: لا يُحْزِنْكَ أيها الملكُ هذا الأمْرُ ولا تَخَفْ منهُ، أمَّا السَّمكَتانِ الحَمْرَاوانِ اللَّتان رأيْتَهُما قائمتَيْنِ على ذَنَبَيْهِما فإنهُ يأتِيكَ رسولٌ منْ مَلكِ نَهاوَنْدَ بِعُلْبةٍ فيها عِقْدَانِ منَ الدُّرِّ والياقُوتِ الأحمَرِ قِيمتُهُما أرْبعةُ آلافِ رِطْلٍ منْ ذَهبٍ فيقومُ بيْنَ يدَيْكَ، وأمَّا الوَزَّتانِ اللَّتانِ رأيتَهُما طارَتَا منْ وَراءِ ظَهْرِكَ فوَقَعَتا بينَ يدَيْكَ فإنهُ يأتِيكَ منْ مَلِكِ بَلْخَ فرَسانِ ليْسَ على الأرْضِ مِثْلهُما فيقُومانِ بينَ يدَيْكَ. وأمَّا الحيَّةُ التي رأيتَها تَدِبُّ على رِجلِكَ اليُسْرَى فإنهُ يأتِيكَ منْ مَلكِ صِنْجينَ منْ يقُومُ بينَ يدَيكَ بِسيفٍ خالِصِ الحدِيدِ لا يُوجَدُ مثْلُهُ.

«وأمَّا الدَّمُ الذي رأيْتَ كأنهُ خُضِبَ بهِ جسَدُكَ فإنهُ يأتِيكَ منْ ملكِ كازَرُونَ منْ يقُومُ بينَ يدَيْكَ بلِباسٍ مُعْجِبٍ يُسَمَّى حُلَّةَ أُرْجُوانٍ يُضِيءُ في الظُّلْمةِ. وأمَّا ما رأيْتَ منْ غَسلِكَ بالماءِ فإنهُ يأتِيكَ منْ ملِكِ رِهْزِينَ منْ يقُومُ بينَ يدَيْكَ بثِيابٍ كَتانٍ منْ لِباسِ المُلوكِ، وأما ما رأيْتَ مِنْ أنكَ على جبَلٍ أبيَضَ فإنهُ يأتيكَ منْ ملِكِ كيْدُورَ منْ يقُومَ بينَ يدَيْكَ بفِيلٍ أبيضَ لا تَلْحَقُهُ

الخيْلُ. وأمَّا ما رأيْتَ على رأسِكَ شَبيهاً بالنارِ فإنهُ يأتيكَ منْ ملكٍ أرْزَنَ منْ يقَومُ بينَ يدَيكَ بإكلِيلٍ منْ ذهَبٍ مُكلَّلٍ بالدُّرِّ والياقوتِ، وأما الطيرُ الذي رأيتَهُ ضَرَبَ رَأسكَ بمِنْقارِه فلسْتُ مُفسِّراً ذلكَ اليوْمَ وليْسَ بِضارِّكَ فلاَ تَوْجَلَنَّ[1] منهُ ولكنَّ فيهِ بعْضَ السُّخْطِ والإعْرَاضِ عمَّا تُحِبُّهُ. فهذَا تَفْسيرُ رؤْياكَ أيها الملكُ؟ وأمَّا هذهِ البُرُدُ والرُّسُلُ فإنها تأتيكَ بعْدَ سبْعةِ أيَّامٍ جميعاً فتَقومُ بينَ يدَيْكَ، فلمَّا سَمعَ الملكُ ذلكَ سجَدَ لِكَبارِيُونَ ورجَعَ إلى مَنزِله.

فلمَّا كانَ بعدَ سبْعةِ أيَّامٍ جاءَتِ البَشائِرُ بقُدُومِ الرُّسُلِ فخرَجَ الملكُ فجلَسَ على التخْتِ وأذِنَ للأشْرَافِ وجاءَتْهُ الهدايا كما أخبَرَهُ كَبارِيُونَ الحكيمَ. فلَّما رَأى الملكُ ذلكَ ٱشتَدَّ عجَبُهُ وفرَحُهُ منْ علْم كبارِيُونَ وقال: ما وُفِّقْتُ حين قصصت رُؤْيايَ على البرَاهِمةِ فأمَرُوني بما أمَرُوني بهِ. ولوْلا أنَّ الله تعالى تَدارَكَني برَحمتهِ لكُنْتُ هَلَكْتُ وأهْلَكْتُ. . . . وكذلكَ لا يَنبغي لأحدٍ أنْ يَسْمَعَ إلاّ منَ الأخِلاّءِ ذوِي العقُولِ، وإنَّ إيرَاخْتَ أشارَتْ بالخَيرِ فقَبِلتهُ ورأيْتُ بهِ النَّجاحَ فضَعُوا الهَدِية بينَ يدَيْها لِتأخُذَ منها ما ٱخْتارَتْ. ثمَّ قال لإيلاذَ: خُذِ الإكليلَ والثّيابَ وٱحْمِلْها واتْبَعْني بها إلى مجلِسِ النّساءِ، ودَعا الملكُ إيرَاختَ وحُورَقْناهُ أكْرَمَ نِسائهِ بينَ يدَيْهِ، فقالَ لإيلاذَ: دَع الكُسْوَةَ والإكليلَ بيْنَ يدَيْ إيرَاخت لِتأخُذَ أيها شاءَتْ، فوُضِعتِ الهدَايا بينَ يدَيْ إيرَاختَ فأخَذَتْ منها الإكليلَ وأخَذْتْ حُورَقْناهُ كُسْوَةً منْ أفْخَرِ الثِّيابِ وأحْسَنِها، وكانَ منْ عادةِ الملِكِ أنْ يكونَ ليْلةً عندَ إيرَاختَ وليْلةً عندَ حُورَقْناهُ.

وكانَ منْ سُنَّةِ الملِكِ أنْ تُهيىءَ لهُ المرْأةُ التي يكونُ عندَها في ليْلتِها أرُزًّا فتُطْعِمهُ، فأتى الملكُ إيراختَ في نَوْبَتِها وقدْ صَنَعتْ لهُ أرُزًّا فدَخلتْ عليْهِ بالصَّحْفةِ والإكليلُ على رأسِها فَعَلِمتْ حُورَقْناهُ بذلك فَغارَتْ منْ

(١) توجلن: تخفن.

إيراخْتَ فَلبِستْ تلْكَ الكُسْوَة ومَرَّتْ بينَ يَدَي الملِكِ وتلْكَ الثِّيابُ تُضِيءُ عليْها مع نورِ وجْهِها كما تُضيءُ الشَّمْسُ فلمَّا رآها الملِكُ أعجَبتْهُ ثمَّ التفَتَ إلى إيراخْتَ فقالَ: إنكِ جاهِلةٌ حينَ أخَذْتِ الإكْليلَ وتَرَكْتِ الكُسْوَةَ التي ليْسَ في خَزائِننا مِثلُها. فلمَّا سَمِعَتْ إيراختُ مدْحَ الملكِ لحُورَقْناهَ وثَناءَهُ وتَجْهِيلَها هيَ وذَمَّ رأيِها أخذَها مِنْ ذلكَ الغَيْرَةُ والغيْظُ فضَرَبتْ بالصَّحْفةِ رأسَ الملِكِ فسَالَ الأُرُزُّ على وجهِهِ وكان ذلكَ تَمامَ تَعْبير الرؤيا التي عَبَّرَها كَبارِيونَ فقامَ الملكُ منْ مكانهِ ودَعا بإيلاذَ وقالَ: ألاَ تَرَى وأنا ملكُ العالَم، وكيْفَ حَقَّرَتْني هذهِ الجاهلةُ وفَعَلتْ بي ما تَرَى فانْطَلِقْ بها فاقتُلْها ولا تَرْحَمْها.

فخرَجَ إيلاذُ منْ عندِ الملِكِ وقال: لا أقتُلُها حتى يَسكُنَ عنهُ الغضبُ فالمرْأةُ عاقلةٌ شديدَةُ الرَّأيِ منَ المَلِكاتِ التي ليْسَ لها عدِيلٌ في النِّساءِ وليْسَ الملكُ بِصابِرٍ عنها، وقدْ خلَّصَتْهُ منَ الموتِ وعَمِلتْ أعْمالاً صالحةً ورَجاؤُنا فِيها عظيمٌ، ولَستُ آمَنُهُ أنْ يقولَ: لِمَ لمْ تُؤَخِّرْ قتْلَها حتى تُراجِعَني، فَلَستُ قاتِلَها حتى أنظُرَ رأيَ الملكِ فِيها ثانيةً فإنْ رأيتهُ نادِماً حزِيناً على ما صَنَعَ جِئْتُ بها حيَّةً، وكنتُ قدْ عَمِلتُ عمَلاً عَظيماً وأنجَيتُ إيَراختَ منَ القتْلِ وحَفِظتُ قلْبَ الملكِ واتَّخَذْت عندَ عامَّةِ النَّاسِ بذلكَ يَداً وإنْ رأيتُهُ فرِحاً مُستريحاً مُصوِّباً رأيَه في الذي فعَلَهُ وأمَرَ بهِ فقَتْلُها لا يَفُوتُ. ثمَّ انْطَلَقَ بها إلى مَنزِلِهِ ووَكَّلَ بها خادِماً منْ أُمَنائهِ وأمَرَهُ بخِدْمتِها وحِراستِها حتى يَنظُرَ ما يكُونُ منْ أمْرِها وأمْرِ الملكِ، ثمَّ خَضَبَ سيْفَهُ بالدَّم ودَخلَ على الملكِ كالكَئِيبِ الحَزِينِ فقال: أيها الملِكُ إني قدْ أمْضَيتُ أمرَكَ في إيرَاختَ فلمْ يَلْبَثِ الملكُ أنْ سَكَنَ عنهُ الغضَبُ وذكَرَ جَمالَ إيراختَ واشْتَدَّ أسفُهُ عليْها وجعَلَ يُعَزِّي نفْسَهُ عنها ويَتَجلَّدُ، وهو معَ ذلكَ يَسْتحي أنْ يَسألَ إيلاذَ أحَقًّا أمْضَى أمرَهُ فيها أمْ لاَ، ورَجَا لِمَا عَرَفَ منْ عقْلِ إيلاذَ أَلاَّ يكونَ قدْ فَعل ذلكَ، ونَظَرَ إلَيْهِ إيلاذْ بفضْلِ عَقلهِ فَعَلِمَ الذِي بهِ، فقال له: لا تَهتَمَّ

ولا تَحْزَنْ أيها الملكُ! فإنهُ ليْسَ في الهَمِّ والحُزْنِ مَنْفعةٌ ولكنّهُما يُنْحِلاَنِ الجسْمَ ويُفْسِدانِه، فاْصْبِرْ أيها الملكُ! على ما لَستَ بِقادِرٍ عليْهِ أبداً. وإنْ أحَبَّ الملكُ حدَّثْتُهُ بحدِيثٍ يُسلِّيهِ. قال: حَدِّثْني.

[الحمامتان والحَبّ]

قال إيلاذُ: زعَمُوا أنَّ حَمامَتيْنِ ذَكراً وأنثَى مَلاَ عُشَّهُما منَ الحِنْطةِ والشَّعيرِ. فقال الذَّكَرُ للأُنثى: إنَّا إذا وَجَدْنا في الصَّحَارَى ما نَعيشُ بهِ فلسْنا نأكُلُ ممَّا هٰهُنا شيئاً، فإذا جاءَ الشِّتاءُ ولمْ يكُنْ في الصَّحَارَى شيءٌ رَجَعْنا إلى مَا في عُشِّنا فأكلْناهُ، فَرَضِيَتِ الأنثى بذلكَ وقالتْ لهُ: نِعِمَّا رَأيتَ، وكانَ ذلكَ الحَبُّ نَدِيًّا حينَ وَضَعاهُ في عُشِّهما، فانْطَلَقَ الذَّكَرُ فَغابَ. فلمَّا جاءَ الصَّيْفُ يَبِسَ الحَبُّ وانْضمَرَ فلمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رأى الحَبَّ ناقِصاً فقال لَها: أليْسَ كُنَّا جَمَعْنا رأيَنا على أَلاَّ نَأكُلَ منْهُ شيئاً فَلِمَ أكَلْتِهِ؟ فَجعَلتْ تَحْلِفُ أنها ما أكَلَتْ منهُ شيء وجَعَلتْ تَعْتذِرُ إليهِ فلمْ يُصَدِّقْها وجعَلَ يَنْقُرُها حتى ماتتْ.

فلمَّا جاءَتِ الأمْطارُ ودَخلَ الشِّتاءُ تَندَّى الحَبُّ وامْتلأَ العُشُّ كما كانَ، فلمَّا رأى الذَّكَرُ ذلكَ نَدِمَ، ثمَّ اضْطَجَعَ إلى جانبِ حَمامتهِ وقال: ما يَنْفَعُني الحَبُّ والعيْشُ بَعْدَكَ إذا طَلَبْتُكِ فلمْ أجدْكَ ولمْ أقْدِرْ عليْكِ. وإذا فَكَّرْتُ في أمرِكِ وعَلِمتُ أني قدْ ظَلَمْتُكِ ولا أقْدِرُ على تَدارُكِ[1] ما فاتَ، ثمَّ استَمَرَّ على حُزْنهِ فلمْ يَطْعَمْ طَعاماً ولا شَراباً حتى ماتَ إلى جانِبها.

والعاقِلُ لا يَعْجَلُ في الْعذابِ والعُقوبةِ، ولا سِيَّما مَنْ يَخافُ النَّدامةَ كما نَدِمَ الحَمامُ الذَّكَرُ. وقدْ سَمِعْتُ أيضاً أنّ رجُلاً دَخَلَ الجبَلَ وعلى رأسهِ كارَةٌ[2] منَ العَدَسِ فوَضَعَ الْكارَةَ على الأرْضِ ليَستريحَ فنزلَ قِرْدٌ منْ شَجرَةٍ فأخَذَ مِلْءَ كَفِّهِ منَ العَدَسِ وصَعِدَ إلى الشجرَةِ فسَقَطَتْ منْ يدِه حَبَّةٌ فنزَلَ في

(١) تدارك: تلافى.

(٢) الكارة: صُرَّة للثياب.

طلَبِها فلمْ يَجِدْها وٱنْتَثَر ما كانَ في يدِه منَ العدَسِ أجْمَعُ، وأنتَ أيضاً أيها الملِكُ عندَكَ كثيرٌ ممَّنْ تُحِبُّ تَدَعُهمْ وتَطْلُبُ ما لا تَجِدُ، فلَّما سَمِعَ الملكُ ذلكَ خَشِيَ أنْ تكونَ إيرَاخْتُ قدْ هَلكتْ فقال: إيهاً[1] إيلاذُ أمنْ كلمَةٍ واحدَةٍ فَعَلْتَ ما أمَرْتُكَ بهِ منْ ساعتِكَ وتَعلَّقْتَ بحَرْفٍ واحدٍ كانَ منِّي ولمْ تَتَثَبَّتْ في الأمْرِ؟.

قال إيلاذُ: إنّ الذي قوْلُهُ واحدٌ لا يَخْتَلِفُ هوَ الله الذي لا تَبْديلَ لكلِماتهِ ولا ٱخْتِلافَ لقوْلهِ. قال الملكُ: لقدْ أفْسَدْتَ أمرِي وشَدَّدْتَ حُزْني بقتْل إيراختَ. قال إيلاذُ: اثْنانِ ينبغي لهُما أنْ يَحْزَنا: الذي يَعْمَلُ الإثمَ في كلِّ يوْمٍ والذي لا يَعْمَلُ خيراً قَطُّ، لأنَّ فرَحَهما في الدُّنْيا ونعِيمَهما قليلٌ ونَدَامَتَهُما إذْ يُعايِنانِ الجزاءَ طَويلةٌ لا يُسْتطاعُ إحْصاؤُها. قال الملكُ: لئنْ رأيتُ إيراختَ حيَّةً لا أحْزَنُ على شيءٍ أبداً. قال إيلاذُ: أثْنانِ لا ينبغي لَهما أنْ يَحْزَنا: المُجْتهِدُ في البِرِّ كلَّ يوْمٍ، والذي لمْ يَأثَمْ قَطُّ. قال الملكُ: ما أنا بِناظِرٍ إلى إيراخْتُ أكثرَ ممَّا نظَرْتُ. قال إيلاذُ: اثْنانِ لا يَنْظُرَانِ: الأعمَى والذي لاَ عَقْلَ لهُ، وكما أنَّ الأعمَى لا يَنظُرُ السَّماءَ ونُجُومَها وأرْضَها ولا يَنظُرُ البُعْدَ والقُرْبَ كذلكَ الذي لا عَقْلَ لهُ لا يَعْرِفُ الحَسَنَ من القَبيحِ ولا المُحْسِنَ منَ المُسِيءِ. قال الملكُ: لوْ رأيتُ إيراخْتَ لاشْتَدَّ فرَحي. قالَ إيلاذُ اثْنانِ هُما الفَرِحانِ: البَصيرُ والعالِمُ، فكما أنَّ البَصِيرَ يُبْصِرُ أمُورَ الْعالَمِ وهو فيهِ من الزِّيادةِ والنُّقْصانِ والبَعِيدِ والقرِيبِ.

«فكذلكَ الْعالِمُ يُبْصِرُ البِرَّ والإثْمَ ويَعْرِفُ عمَلَ الآخرةِ ويَتبيَّنُ لهُ نَجاتُهُ ويُهْدَى إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ. قال الملِكُ: ينبغي لنا أنْ نَتَباعَدَ منكَ يا إيلاذُ ونأخُذَ الحَذَرَ ونَلْزَمَ الاتّقاءَ، قال إيلاَذُ: اثْنانِ ينبغي أنْ يُتَباعَدَ منهما الذِي يقُولُ لا بِرَّ ولا إثْمَ ولا عِقابَ ولا ثَوابَ ولاشيءَ عليَّ ممَّا أنا فيهِ، والذي

(١) إيه: اسم فعل بمعنى زدني.

لا يَصْرِفُ بصَرَهُ عنِ المُحَرَّمِ ولا أُذُنَهُ عنِ ٱستماعِ السُّوءِ ولا نفْسَهُ عنْ خاصَّةِ غيرِه ولا قلْبَهُ عمَّا تَهُمُّ بهِ نفْسُهُ منَ الإثمِ والحِرْصِ. قال الملكُ: صارَتْ يدِي منْ إيراخْتَ صِفْراً[1] قال إيلاذُ: ثلاثَةُ أشْياءَ أصْفارٌ: النَّهْرُ الذي ليْسَ فيهِ ماءٌ، والأرْضُ التي ليْسَ فيها مَلكٌ، والمرْأةُ التي ليْسَ لها بَعْلٌ. قال الملِك: إنكَ يا إيلاذُ لَتُلَقَّى الجوابَ قال إيلاذُ: ثلاثةٌ يُلَقَّوْنَ الجَوابَ: الملِكُ الذي يُعْطِي ويَقْسِمُ خزَائنهِ، والمرْأةُ المُهْدَاةُ إلى مَنْ تَوَدُّ منْ ذَوِيَ الحَسَبِ، والرَّجُلُ الْعالِمُ المُوَفَّقُ للْخيرِ.

ثمَّ إنَّ إيلاذَ لمَّا رأى الملكَ قدِ اشتَدَّ بهِ الأمْرُ قال: أيها الملكُ! إنَّ إيراخْتَ على قيْدِ الحَياةِ، فلمَّا سَمِعَ الملكُ ذلكَ اشتَدَّ فرَحهُ وقالَ: يا إيلاذُ إنما مَنَعني منَ الغضَبِ ما أعْرِفُ منْ نَصيحَتِكَ وصِدْقِ حَدِيثِكَ وكنتُ أرْجُو لمَعْرِفَتي بعِلْمِكَ ألاَّ تكُونَ قدْ قَتَلتَ إيراختَ، فإنها وإنْ كانتْ أتَتْ عَظيماً وأغلظتْ في القوْلِ فلمْ تأتهِ عدَاوَةً ولا طَلَبَ مضَرَّةٍ ولكنَّها فَعَلتْ ذلكَ لِلْغَيْرَةِ، وقدْ كانَ ينبغي لي أنْ أُعْرِضَ عنْ ذلكَ وأحْتمِلَهُ، ولكنكَ يا إيلاذُ أرَدْتَ أنْ تَخْبُرَني وتَترُكَني في شكٍّ منْ أمْرِها، وقدِ اتَّخَذْتَ عنْدِي أفضَلَ الأيادِي[2] وأنا لكَ شاكِرٌ فٱنْطَلِقْ فأتِني بها. فخرَجَ منَ عنْدِ الملِكِ فأتى إيراختَ وأمَرَها أنْ تَتزَيَّنَ ففَعلَتْ ذلكَ وانطلَقَ بها إلى الملِكِ فلمَّا دَخَلتْ سَجَدَتْ لهُ ثمَّ قامتْ بينَ يدَيْهِ وقالتْ: أحْمَدُ الله تعالى ثمَّ أحْمَدُ الملكَ الذي أحْسَنَ إليَّ، قدْ أذْنَبتُ الذَّنْبَ العظيمَ الذي لمْ أكُنْ للْبَقاءِ أهْلاً بعدَهُ فوَسِعَهُ حِلْمُهُ وكَرَمُ طَبْعهِ ورأفتُهُ، ثمَّ أحْمَدُ إيلاذَ الذي أخَّرَ أمْرِي وأنجانِي منَ الهَلكةِ لِعِلْمِه برَأفةِ الملكِ وسَعَةِ حِلْمِهِ وجُودِهِ وكَرَمِ جَوْجَرِه ووَفاءِ عَهْدِهِ.

وقال الملكُ لإيلاَذَ: ما أعظَمَ يدَكَ عنْدِي وعنْدَ إيراخْتَ وعندَ العامّةِ

---

(١) الصِّفْرُ: الخالي.

(٢) الأيادي: النِّعَمُ، جمع يد.

إِذْ قدْ أَحْيَيْتَها بعدَ ما أَمَرْتُ بِقَتْلِها، فأنتَ الذي وهَبَها لي اليوْمَ فإني لمْ أزَلْ واثِقاً بِنَصِيحتِكَ وتَدْبيرِكَ وقدِ ٱزْدَدْتَ اليوْمَ عندِي كَرامةً وتَعْظيماً وأنتَ مُحَكَّمٌ في مُلْكي تَعْمَلُ فيهِ بما تَرَى وتَحْكُم عليهِ بما تُرِيدُ، فقدْ جَعَلتُ ذلكَ إِليْكَ ووَثِقتُ بكَ. قال إِيلاَذُ: أدامَ الله لكَ أيها الملكُ المُلْكَ والسرُورَ، فَلَستُ بمحمُودٍ على ذلكَ فإِنما أنا عبْدُكَ لَكِنَّ حَاجتي أَلاَّ يَعْجَلَ المَلْكُ في الأمْرِ الْجَسيمِ الذي يَنْدَمُ على فِعْلهِ، وتكونُ عاقبتُهُ الغَمَّ والحُزْنَ ولا سِيَّما في مِثْلِ هذهِ المرْأة النّاصِحَةِ المُشْفِقَةِ التي لا يُوجَدُ في الأرضِ مِثْلُها. فقال الملكُ: بحقٍّ قلتَ يا إِيلاذُ، وقدْ قَبِلْتُ قوْلَكَ ولسْتُ عامِلاً بعدَها عمَلاً صَغيراً ولا كبيراً فضْلاً عنْ مثْلِ هذا الأمْرِ العَظيمِ الذي ما سَلِمْتُ منهُ إِلاَّ بعدَ المُؤَامرَةِ[1] والنظَر والتردُّدِ إِلى ذَوِي العقُولِ ومُشاوَرَةِ أهْلِ المَوَدَّةِ والرَّأيِ.

ثمَّ أحْسَنَ الملكُ جائزَةَ إِيلاذَ ومكَّنَهُ منْ أولئكَ البرَاهِمةِ الذين أشَارُوا بقَتْلِ أحْبابِه فأطلَقَ فيهِم السَّيْفَ، وقَرَّتْ عيْنُ الملكِ وعُيونُ عظَماءِ أهلِ مَمْلكتهِ وحَمِدُوا الله وأثْنَوْا على كَبارِيُونَ لسَعَةِ عِلْمِهِ وفضْلِ حكمتهِ لأنّ بعِلْمهِ خَلَّصَ المِلكَ ووَزِيرَهُ الصَّالحَ وامْرَأتَه الصَّالحَةَ.

(١) المؤامرة من آمره في كذا مؤامرة: شاوره.